القصيدة العينية أو النفس الناطقة

لابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م)

و

مخطوطة معرفة النفس

لابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٧ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م)

تحقيق ودراسة عبد الوهاب ملا

أ ـ القصيدة العينية أو رحلة النفس الناطقة

لابن سينا

النفس البشرية احتلت جانباً كبيراً من الفلسفة ، كما أن المتكلمين والصوفية وعلماء النفس لهم أبحاث طويلة فيها .

وكلمة الصوفية : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» دعوة ملحة لدراسة النفس ومعرفتها واكتشاف أسرارها . وللنفس أسرار كثيرة متنوعة ، حيّرت العقول والأفكار فى أمرها : كيف تدخل البدن ، وكيف تخرج ، ومن أين تأتي والى أين ترحل ؟ وهل هي حادثة أو قديمة ، خالدة أو فانية ، جوهر أو عرض ، روحانية أو جسمانية ، بسيطة أو مركبة ؟ وهل هي إلهية لاهوتية ، أو بشرية ناسوتية ؟

فان كانت إلهية فلماذا هبطت من السماء الى الغبراء ، من الأوج الى الأرض . . من ملكوت الطهارة الى هذه الدنيا ؟ . . وهل تترك الجسم بلا رجعة ، أو تعود مرة أخرى ؟ واذا عادت ، فكيف ، ومتى ؟ وهل تبحث لها عن جسم جديد ـ أو تنزل في كوخها القديم ؟ وأين يبقى كوخها القديم ، وأين تبقى هي ، وأين ستسكن ؟ وهل توجد معسكرات أو ملاجىء للأرواح ، قبل أداء مهمتها وتعلقها بالبدن ، وبعد ذلك ؟ وأين هي ؟

وهل الروح باحثة تريد اجراء دراسة علمية عملية فى عالم الجسد أو مُصلحة اجتماعية تحاول الارشاد والاصلاح ؟ ثم ماذا تريد مطلقاً من الجسد الفاني ، وما الحكمة إجمالاً من سجنها فى ذا السجن المظلم ؟هل تتجسس عليه لتعلم عن كثب ماذا يعمل وماذا يشتهي ، وماذا يأمل وفيم يفكر ، وعمّ يبحث وماذا يخطّط .

لابن سينا قصيدة في الروح تسمى : القصيدة العينية أو النفسية ، من البحر الكامل ، يشبّه فيها الروح بحمامة نازلة من المحلّ الأرفع ، من عالم السماء ، الى الجسم الفاني ، الى عالم الفناء ، تشبيهاً بليغاً . والقصيدة في ٢١ بيتاً .

ويمكن تقسيم القصيدة ـ حسب الأفكار الرئيسية فيها ـ الى خمسة أقسام :

(أ) في وصف هبوط النفس الناطقة الى سجن الجسد ، وحالتها النفسية ، ومللها وشكواها ، ثم تعوّدها

الاضطراري الخاضع للأمر الواقع ، وبكائها ونحيبها حتى يموت الجسم ، فيفرج عنها ، ويطلق سراحها ، فتفرح وتغني وتطير .

(ب) فى سبب هبوطها الاكراهي ، وتعلقها الاجباري بالبدن : هل هو لتحقيق حكمة خفية ، فما هي إذن ؟ أو لتحصيل الكمال وادراك أسرار العالمين : الحسي والعقلي ؟ فهل تحصّل ومن يبرهن أنها تحصّل ؟ .

(ج) فى قطع علاقاتها بالجسم وتوديعه بلا عودة ، أي عدم قبولها البعثة مرة أخرى فى جسم آخر ، فلا حلول ولا تناسخ .

(د) فى وصف وجودها بعد الهبوط والصعود .

(هـ) النفس الناطقة مُعمّى حيرت ابن سينا ، فلم يفهم سبب وجودها المؤقت فى الجسم ، فهو يبحث عن الجواب ، ولهذا رجا الراسخين فى العلم أن يُنعموا بالجواب . فلعلهم يكشفون ذا السر ويحلّون ذا اللغز ، وفوق كل ذي علم عليم .

القصيدة :

القسم الأول

هبطت إليك من المحلّ الأرفع

ورقاءُ ذاتُ تعزّزٍ وتمنّع

المحل الأرفع : هو السماء ، **الورقاء** : الحمامه استعيرت للنفس الناطقة .

محجوبة عن كلّ مقلة عارف

وهي التي سفرت ولم تتبرقع

محجوبة عن عيون العارفين ناهيك عن العاديين مع أنها لا تتستر ولا تتنخبأ .

وصلت على كره اليك وربّما

كرهت فراقك وهي ذات تفجّع

أجبرت على ترك وطنها السماء ، والهجرة الى مستنقع الجسم ، فكرهت الفراق والبعد والاغتراب ، فالحنين الى الوطن قتّال ، ولعلّها تألف العيش فى ذا المستنقع فتحبذ البقاء ، وتستوطن مستعمرة الجسم وتقيم فيها .

أنفت وما أنست فلما واصلت

ألفت مجاورة الخراب البلقع

ملّت الحياة أولاً في ذا المستنقع ، ولم تستأنس بالخراب ، ولكنها بمرور الزمن تعودت أن ترى على مضض ، مشاهد الخراب اليباب .

وأظنها نسيت عهودا بالحمى

ومنازلاً بفراقهـــا لم تقنـــع

الحمى : ما يحميه الانسان ، والمحظور الذي لا يُدنى اليه ، والمراد به هنا العالم السماوي . والظاهر أنها رضخت للأمر الواقع فنسيت مؤقتاً أوقاتها الصافية ، ومملكتها المحمية ، وديارها السماوية في العالم العلوي ، لم تكن لترضى بفراقها لو كانت حرة .

حتى اذا اتصلت بها هبوطها

عن ميم مركزها بذات الأجرع

ولكن ، هيهات ! فانها بعد هبوطها الالزامي من عالمها العلوي الى دنيا الجسم المجدب الخراب .

عَلِقَت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت

ـ بين المعالم والطلول الخضّع ـ

عَلِقَ يَعلَقُ عُلُوقاً . **الثقيل** : البدن . **الطلول الخضّع** : الآثار الوضيعة ، وهي أجزاء البدن . أي : لزقت بها مادة الجسم الثقيلة فطوّقتها ، وأفقدتها خفّتها ، ورقّتها ، وشفوفها ، محبوسة ، مكبولة ، بين أطلال البدن الآيلة للفناء والدمار .

تبكي ، وقد ذكرت عهوداً بالحمى

بمدامع تهمي ولم تتقطع

صارت تبكي وتسيل دموعها بلا انقطاع ، فقد تذكرت أويقاتها الطيبة الممتعة في عالمها العلوي ، ووطنها السماوي ، كما يتذكر المحب العنيف المدنف ، مرابع الهوى ، ومعاهد الصبا ، فيبكي بكاء مراً .

وتظلّ ساجعة على الدمن الـتي

درست بتكرار الرياح الأربع

الدمنة : المزبلة وجمعها دمن ، وأريد بها أجزاء البدن . صارت تعزّي نفسها ، وتغرّد من شدّة الكآبة على مزبلة الجسم الدارس بسبب تأثير الرياح الأربع : الصبا والدّبور ، والشمال ، والجنوب ، والمراد بها الأمزجة المختلفة : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، اللاء يؤثرن فى البدن تدريجياً حتى يتركنه خامداً رميماً .

إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها

قفص عن الأوج الفسيح المربع

الأوج : المكان . **المربع** : مكان الربيع كالمصيف والمشتى .
ملّت النفس الناطقة الحياة فى هذه الخربة الموحشة ، فاشتاقت الى النجاة والخلاص من العذاب . . عذاب الغربة والاعتقال ، فحاولت الفرار والعودة الى وطنها ، حيث المكان واسع فسيح ، والحياة ربيع دائم ، ولكنها مع الأسف وجدت نفسها فى شرك الجسم الكثيف ، وأحبولة البدن الأرضي الثقيل .
فهي ـ إذن ـ مقيّدة ، مكبولة ، أسيرة ، سجينة فى قفص الجسد لا تستطيع أن تطير في الأجواء الى سمائها وهوائها .
يا لها من أحبولة ! يا لها من مصيبة ، يا لها من كارثة !

حتى اذا قرب المسير الى الحمى

ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع

وبعد اللات واللتيا ، وبعد خراب البصرة ، بُشّرت بالفرج ـ فقد دنا انتهاء مأموريتها وسفارتها فى الجسد ، وآن الأوان لرحيلها الى عالمها العلوي الأوسع الأفسح .

سجعت وقد كُشف الغطاء فأبصرت

ما ليس يُدركُ بالعيون الهُجّع

غنّت من الأعماق ، فرحة لاطلاق سراحها من سجن البدن ، وقد أزيح الستار الكثيف الغليظ عن عينيها ، فرأت بعيونها الروحية النافذة ، نظراتها الخارقة ، ما لم تكن لتراه بالعيون المادية النائمة .

وغدت مفارقة لكل مخلّفٍ

عنها ، حليف الترب غير مُشيّع

ارتفعت طائرة ، فرحة ساجعة ، مخلّفة وراءها جثة من عالم الأرض ، هامدة ، تلازم الثرى ، جامدة لا تستطيع حركة ولا كلاماً ، ولا تشييعاً ولا توديعاً . .
طارت سعيدة سعادة حقيقة بعد نجاتها من عذاب السجن ، تاركة خلفها التراب ، وما يؤول : الى التراب . . وسبحان الملك الوهاب !

وبدت تغرّد فوق ذروة شاهق

والعلم يرفع كل من لم يُرفع

وتنفست تنفس الحرية . . وسمت قمة السماء ، وغنّت لنفسها غناء التحرر ونفضت عنها ما علق بها من آثار البدن الفاني ، وتجلّت بالعلم اللدني ، ووصلت الى المقام الرفيع بالعلم الالهي الذي يرفع من لا يرفعه العلم الدنيوي .

القسم الثاني

فلأي شيء أُهبطت من شامخ

عال الى قعر الحضيض الأوضع ؟

لماذا أجبرت النفس الناطقة على الهبوط من الثريا الى الثرى . . من عرشها العالي السماوي . . الى القاع الوطيء ، الى الكوخ الحقير ، الى عالم الأرض وتعلقت بالجسد الفاني . . وحُبست فيه ؟ هل لسبب مادي أو معنوي ؟

إن كان أُهبطها الاله لحكمة

طُويت على الفطن اللبيب الأروع

فان كان الله أهبطها **لحكمة تخفى** على الأذكياء الألباء العلماء ، فما هي هذه الحكمة ، وما السر فى إخفائها عن الادراك البشري ؟

فهبوطها إن كان ضربة لازب

لتكون سامعة بما لم تسمع

وإن كان الله أهبطها **لحكمة لا تخفى** على الأذكياء الألباء العلماء ، لحكمة **تحصيل الكمال** ، وزيادة العلم والمعرفة ، وتكثير الثقافة وتوسيع الخبرة أي لتعلم بالتصاقها بالبدن علماً مباشراً ، لم تكن تعلمه من قبل . . كما يعلم الجواسيس أشياء مهمة ، ويطّلعون على أسرار خطيرة ، بقربهم من المجسوس عليهم .

وتعود عالمة بكل خفية

فى العالمين ، فخرقُها لم يُرقع

أي لتجسس على البدن ، وتجمع المعلومات ، وترجع بعد أداء مهمتها وبعد أن تخلّف وراءها جثة أرضية ، هامدة ، جيفة . وهي عالمة بكل خفايا هذي الجثة ، وأسرارها الصورية والتصورية ، الحسية والعقلية ، فى عالمي الظاهر والباطن ، ترجع وتعود الى عالمها السماوي العالي من جديد ، لترفع تقريراً بذلك . . . لمن ؟ أو لتحتفظ بهذه المعلومات والخبرات والملاحظات لنفسها .
إن كان هبوطها الالزامي لهذه الحكمة ، فينبغي أن لا يقطع تعلقها بالبدن

قبل تحقيقها ، وقبل انجاز ما أتت لأجله . .
ولكن يقطع . . .
فاللازم منفي ، واذا انتفى اللازم انتفى الملزوم . .
(اللازم هنا هو السبب ، والعلة ، والغاية ، وهي تحقيق الحكمة ، والملزوم هو المسبب ، والمعلول ، والمغيّى ، وهو الهبوط الارغامي) .
فالهبوط ـ إذن ـ ليس لادراك أسرار الجسد ، وتحصيل الكمال ، لأمرين :

الأول : لأن الكمالات العقلية غير متناهية ، ولا يمكن حصولها جميعها للنفس مدة الحياة ، ومعاشرة البدن .

الثاني : لأن أكثر النفوس عند المفارقة خالية عن الكمال ، جاهلة حالي المبدأ والمعاد .

والخلاصة : ان كان سجنها في الجسد لأجل التجسس عليه ، وتدوين أسراره ، لكسب الكمال وتحصيل المعلومات ، والاطلاع على ثقافة جديدة ، فخرقها لم يرقع (اتسع الخرق على الراقع) ، وهدفها لم يتحقق .

القسم الثالث

وهي التي قطع الزمان طريقها
حتى لقد غربت بغير المطلع

انتهت مدة انتدابها ، ومرحلة سفرها ، ورحلة غربتها ، فتوقفت عن السير والحركة . . وجبت علاقتها بالبدن . . فخار بتأثير الرطوبة والحرارة ، فودّعته النفس الناطقة ، وغابت وطارت ، فقد كفاها ما عانته من ألم وعذاب في نفيها ، وتغريبها وسجنها في سجن الجسد المظلم ، غابت ، وطارت . . ولن تعود مرة أخرى لتتعلق بجسم آخر . . فلا تناسخ ولا حلول . . لن تعود كرة أخرى لا للبحث العلمي . . ولا للزيارة ، ولا للسياحة . . . وهل يصلح المنفى للسياحة ؟

القسم الرابع

فكأنها برق تألّق بالحمى
ثم انطوى فكأنه لم يلمع

تعلّق النفس بالبدن قد يمتد نسبياً في مفهومنا ، الا أنه نزر يسير بالنسبة لمبدأ العالم ومنتهاه ، فكأنها ـ والحالة هذي ـ برق خاطف ، وسراب خادع ، لمع في الأفق ، وضاف الجسم وتعلق به ، ثم تحرر واختفى ، فكأنه لم يلمع ، وكأن شيئاً لم يكن .

« كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر »

القسم الخامس والأخير

أنعم بردّ جواب ما أنا فاحص
عنه ، فنار العلم ذات تشعشع

تعلّق النفس الإكراهي المؤقت بالبدن ، ثم تركها الجسد جثة هامدة ، وجيفة للحشرات ، والديدان ، وعروجها مرة أخرى الى عالمها السماوي ، كل أولاء حيّرني ، وشوّش تفكيري .
فأنعم أيها السامع ، أيها العالم ، أيها العارف ، أيها الانسان ، أنعم بردّ جواب ما أبحث عنه . . أنعم بالحلّ الشافي لهذه المعضلة المحيّرة . . فالعلم نار مشعة . . وقد تكشف الخفايا . . وتفك الطلاسم . . وتحلّ الرموز والأسرار .
وهيهات ! وصدق الله : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً . » ـ اسراء ٨٥ ـ

٢ ـ معرفة النفس لابن حزم الأندلسي

مخطوطة بمكتبة شهيد علي رقم ٢٧٠٤ باسطنبول ـ

أ ـ ابن حزم في سطور (٣٨٤ ـ ٤٥٧ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م)

اسمه ونسبه :

ـ هو الامام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم .
ـ وتُرجم له في المخطوط كما يلي :
« الإمام العلاّمة الحافظ الفقيه المجتهد أبو محمد علي بن نعمة بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف الفارسي الأصل اليزيدي الأموي القرطبي الظاهري . وقد كان تشفّع (تمذهب بالمذهب الشافعي) أولاً ثم تركه ، وله حظ وافر في فنون عديدة ، وكان ورعاً زاهداً ، واليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم . أجمع أهل الأندلس لعلوم الاسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسّعه في علوم اللسان والبلاغة ، والشعر والسير والأخبار . » .

ـ وترجم له عبد الرحمن خليفة في مقدمة : « الفصل في الملل والأهواء والنحل (مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بمصر ط ١ ، ١٣٤٧ هـ) ، واستغرب تنوع نسبه ، فهو فارسي ، وقرشيّ ، وأندلسيّ أصلاً وولاءً ومولداً .

ـ كان والده وزيراً ، فنشأ ابن حزم نشأة عزيزة مرفّهة ناعمة ولكنها تعرّضت لفتن السياسة المتقلبة ، وغدر الزمان ، وخيانة الخلّان .

ـ **مؤلفاته** ورسائله كثيرة متنوعة في علوم وفنون شتى من تفسير وحديث وفقه ، الى سياسة واجتماع وأنساب ، الى

الفلسفة والأخلاق والتربية والنفس ، والحب والجمال . فهو علاّمة ذواقة ، وله شعر جميل . كقوله :

وذي عذل في من سباني حُسنُهُ
يُطيل ملامي في الهوى ويقول :
أفي حسن وجه لاح لم تر غيره
ولم تدر كيف الحسن ؟ أنت قتيل !
فقلت له : أسرفت في اللوم ظالماً
وعندي ردّ ـ لو أردت ـ طويل
ألم تر أني ظاهري وأنني
«على ما بدا» حتى يقوم دليل؟

والبيت الأخير هو مذهبه الظاهري . وكانت الأندلس في عهده على مذهب الامام مالك ، ولا ترى اجتهاد فقهياً جديداً ، ورأى ابن حزم أن التقليد بلا برهان بدعة محرّمة . . وكان موقف علماء الأندلس عنيفاً ضدّه ، فصدر أمر بحرق كتبه لاحتوائها على الاجتهاد .

ـ من مولفاته : الايصال الى فهم الخصال ـ الأحكام لأصول الأحكام ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ المحلّى ـ الصادع والرادع ـ شرح الموطّأ ـ الجامع في صحيح الحديث ـ الامامة والسياسة ـ أخلاق النفس ـ كشف الالتباس بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس ـ نقط العروس ـ تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل ، وبيان ما بأيديهم مما لا يحتمل التأويل .

ـ ولابن حزم رسائل قصيرة كثيرة . وذكر بعض منها في المخطوطة تحت عنوان : «ما حوته هذه المجلة (والمقصود بها المجموعة) لابن حزم الأندلسي المالكي ـ عفا الله عنه ـ :

- كتاب الأصول والفروع من قول الأيمة ، ص ١
- رسالة البيان عن حقيقة الايمان ، ص ٩٠
- رسالة في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها ، ص ٩٩
- رسالة الدرّة في تحقيق الكلام فيما يلزم الانسان اعتقاده ، ص ١٠٠
- رسالة التوقيف على شارع النجاة ، ص ١٤١
- رسالة في الردّ على ابن نغريلة اليهودي ، ص ١٤٧
- رسالة في الردّ على الهاتف من بعد ، ص ١٦٣
- رسالة في مسألة الكلب ، ص ١٦٧
- رسالة في جواب ما سئل عنه سؤال تعنيف ، ص ١٧٢
- رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق ، ص ١٩٦
- رسالة في الامامة ، ص ٢٢١
- رسالة في ألم الموت ، ص ٢٢٥
- رسالة في أرواح الأشقياء ، ص ٢٢٦
- رسالة باحثة عن الروح ، ص ٢٢٧
- رسالة باحثة عن الغناء الملهي ، أهو حرام أو مباح ، ص ٢٣٣
- رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، ص ٢٣٥
- رسالة في مراتب العلوم ، ص ٢٥٤

ـ وكتاب ابن حزم : «طوق الحمامة» في وصف الحب والجمال ، فيه دراسات نفسية واجتماعية ودينية ، وحكايات تاريخية وشخصية تمثل جانباً من سيرته الذاتية ، وقد طبع بلايدن بمطبعة بريل عام ١٩١٤ مع مقدمة طويلة باللاتينية كتبها البروفيسور بيتروف .
وتُرجم «طوق الحمامة» الى اللغة الألمانية بعنوان :
Halsband der Taube: Über die Liebe und die Liebenden
بقلم ڤايسڤايلر Weisweiler عام ١٩٤٢ بمطبعة بريل بلايدن أيضاً .

ـ وابن حزم ليس بفيلسوف ، بل هو فقيه ، وهو ليس ضد الفلسفة والمنطق ، ولكنه يبني آراءه على أسس دينية لا فلسفية ، فهو لا يدخل صومعة الفيلسوف للتدبر والتفكر ، وانما يجتهد ، ويحرّم التقليد ، ويثور في ساحة المجتمع للاصلاح الاجتماعي ، والتربية الاجتماعية ، ويجهر بآرائه في أمور الدنيا والدين .
وباختصار قد يطلق على ابن حزم : الحكيم الديني الاجتماعي المجتهد .

ـ الذي يزور جامعة دمشق يرى تمثال ابن حزم في باحتها ، وقد أهدته اليها الحكومة الاسبانية ، اعترافاً بفضله وعلمه ، وتخليداً لذكراه ، وتعبيراً عن افتخارها بالمواطن الأندلسي (الاسباني) ، والعالم الاسلامي : ابن حزم .

ب ـ مخطوطة «معرفة النفس» لابن حزم :

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صلّ على سيدنا محمد وآله .

فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها .

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه :

أطلت الفكرة فى نفسي بعد تيقني أنها المدبرة للجسد ، الحسّاسة ، الحية ، لعاقلة ، المميزة ، العالمة ، وأن الجسد موات لا حياة له ، وجماد لا حركة فيه ، الا أن تحرّكه النفس ، وبعد ايقاني أنها صاحبة هذه الفكرة والمحركة للساني بما تريد إخراجه ، مما يستقر عندها . فقالت مخاطبة لنفسها ، باحثة عن حقيقة أمرها :

يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد ، ألست التي قد عرفت صفات جسدك الذي واليت تدبيره ، وحققتها ، وضبطتها ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد : ألست التي تجاورت جسدك المضاف تدبيره اليك ، فخلص فهمك وبحثك الى ساير ما يليك من الأرض والماء والهواء ، وساير الاجرام ، ثم الى ما لم يلك من الاجرام فميّزت أجناس كل ذلك ، وأنواعه ، وأشخاصه ، وحققت صفات كل ذلك الذاتية والغيرية ، وفرقت بين كل ذلك بالفروق الصحيحة ، ثم تخطيت كل ذلك الى الأفلاك البعيدة ، وما فيها من الأجرام النيّرة ، فعرفت كيفية أدوارها ، ووقفت على حقيقة مدارها ، وضبطت كل ذلك ، وأشرفت عليه ، وشرحت هنالك ، وأوغلت فى تلك الطرق والمسالك ، وخضت اليه الأنوار والظُلم ، واقتحمت نحوه الأبعاد حتى أتيته من أمم ، ولم يخف عليك ما بعُد وغمس [1] ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس المشرفة على ذلك كله ، ألست التي لم تقنعي بهذا المقدار من العلم على عظمه وطوله ، ولا ملا[2] خزانتك هذا الحظ من الاشراف على كبر شأنه ، وهوله ، حتي تعدّيت الى ما كان قبل حلولك فى هذا الجسد ، وارتباطك به ، من أخبار القرون البايدة ، والممالك لدائرة ، والأمم الغابرة ، والوقايع الشنيعة ، والسير الذميمة ، والحميدة . وقفت على أخبارهم وعلومهم ، فشاهدت كل ذلك بمعرفتك إذ لم تشاهديه بحواسك ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس العابطة لهذه العظايم المشرفة على هذه الأمور الشنيعة ، التي آنست ، ألم يكفك هذا كله حتى تجاوزت العالم بما فيه ، وطفّرته من جميع نواحيه ، فشاهدت الواحد الأول ، ووقفت الى الحق الأول ، المبدع للعالم بكل ما فيه ، فأشرقت على أنه هو ، وتوخيت احداثه لكل ما دونه ، لتوهمك لكل ما شاهدته بحواسك ، فأحطت بكل هذا علماً ، واحتويت على جميعه فهماً ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس التي بلغت هذه المبالغ النائية ، وترقّت الى هذه المراقي العالية ، وسربت[3] في تلك السبل الغامضة ، واستسهلت الولوج فى تلك الشعاب الخافية ، وسمت الى التوغل الى تلك المنازل السامية ، وتكلفت الارتقاء الى دار تلك الفلك الشاهقة . تفكري اذ وصلت الى هذه الرتب ، وخرقت تلك الحجب ، ورفعت دونك تلك الستور المسبلة ، وفتحت لك تلك الأبواب المغلقة المقفلة ، وسهل عليك تولج تلك المضايق الهايلة ، وتأتى لك تخلل تلك الثنايا[4] البعيدة ، هل عرفت ماهيتك ، وهل دريت كيفيتك ، وهل وقفت على : أي شيء أنت . . وما جوهرك . . وهل أشرفت على حملك لصفاتك ، كيف حملتها ؟

قالت : لا ، ما عرفت شيّاً[5] من ذلك .

قالت : يا أيتها النفس العارفة بغيرها ، الجاهلة بذاتها ، فهل تعرفين محلك ، ومن أين أنت ، ومن أين تتكلمين ، وكيف تحركين هذه الأعضاء المصوّتة اذا حركتها ، الساكنة اذا تركتها ؟

قالت : لا

قالت : يا أيتها المُعجبُ النفس شأنُها فيما علمت وفيما جهلت ، هل تذكرين : أين كنت ، ومن أين أقبلت ، وكيف تعلقت بهذا الجسد المظلم ، الميت ، الجاهل . . وكيف تصريفك له . . وكيف بقاؤك فيه بالأسباب الممسكة لك معه . . وكيف انفصالك عنه ، عند الاماتة العارضة له ؟

قالت : لا .

قالت : يا أيتها النفس المعترفة بجهل ذاتها ، الواقفة على علم

ما عداها ، ألست أنت المخاطبة ، والمسؤولة السائلة ؟
قالت : بلى .
قالت : فما قطع بك عن معرفة ذاتك ، وصفاتك ، ومكانك ، وبدء شأنك ، ومحلك ، وتنقلك . . . وكيف تعلقت بهذا الجسد . . وكيف تصريفك له . . وكيف تنقلك عنه ؟
فتدبرت هذا ، فأيقنت أنه لو كان علمها كما علمت ، بقوتها وطبيعتها ، دون مادة من غيرها ، لكان المعجز لها مما جهلته ، أسهل عليها من الممكن لها مما علمت .
فاعترفت بأن لها مدبّراً ، علّمها من البعيدات ، فعلمته ، وجهلت ما لم يطلعهاطلعة من القريبات فجهلته .
فيا لك برهاناً على عجز المخلوق ، ومهانته ، وضعفه ، وقلّته !
نعم ! . . وعلى أن النفس لا تفعل ولا تقعد الاّ بقوة وارادة من قبل غيرها ، لا تتجاوزها ، ولا تتعداها .
ولله الأمر كله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .
وحسبنا الله ونعم الوكيل .
انتهى القول فى النفس والحمد لله وحده . وصلّى الله على سيدنا محمد وآله ، وصحبه ، وسلّم تسليماً .

جـ ـ دراسة مقارنـة :

شبّه **ابن سينا** الروح بحمامة معزّزة ، ممنّعة ، خفية عن العيون ، من سكّان العالم العلوي ، أرغمت على ترك وطنها : السماء ، متفجعة متوجعة ، كارهة الهجرة والفراق . وأجبرت على مجاورة الجسم الفاني الذي يشبه خراباً بلقعاً ، ففجعت وحزنت على الفراق ، وبكت متذكرة أوقات صفائها وراحة بالها فى سمائها ، بكاء مراً ، وحاولت النجاة ، والفرار ، للعودة الى وطنها ، ولكن قفص الجسد المحكم ، المتقن ، لم يدع لها مجالاً لذلك ، فخضعت للأمر الواقع ، والكارثة التي حلت بها ، حتى ألفتهما .
وحينما دنا انتهاء فترة سجنها أو انتدابها الجبرى فى الجسد ، فرحت وغنّت ، فرحت لمفارقة سجن الجسد ، هذا الخراب العفن الترابي . . وغنّت لخلاصها من مهمتها الاضطرارية ، وسكناها الاجباري في البدن .
وهنا يسأل ابن سينا عن هذه المعمّى ، عن سبب هبوطها من عالمها السماوي الى عالم الأرض الوضيع ، وان كانت منتدبة ، فما سرّ هذا الانتداب ؟
فان كان الاله جلّ وعلا أرغمها على الهبوط لحكمة خفية ، فلايخلو الأمر من اعتبارين :
إما أنها تقوم بمهمة تجسس على الجسد الأرضي ومطامعه **لحكمة خفية** نجهلها ، فما السبب ـ إذن ـ في إخفائها عن إدراكنا .
وإما أنها قامت ـ مرغمة ـ برحلة علمية لاكتشاف مجاهل الجسد وما يعرض له ، خلال إقامتها الجبرية فيه ، لأجل أن تتعلم هي فى هذه الفترة ما أراد الله لها أن **تتعلم ، وتحصّل من الكمالات الشاملة ، والمقامات العالية .**

وعلى كل حال . . فقد أطلق سراحها . أما السؤال عن سبب رحلتها الارغامية المؤقتة ، فقد بقي بلا جواب ، وابن سينا ينتظر ذلك من أهل الذكر .

أما **ابن حزم** ، فقد أطال الفكر فى «النفس» وتيقّن أنها تتولى أمر الجسد ، فالجسد موات لا حياة فيه ، وجماد لا حركة له ، الا اذا حرّكته النفس .
وكان ذلك فى صورة سؤال من النفس ، واقرار منها .
فتدبير شؤون الجسد بيد النفس العليمة الخبيرة ، لأنها سماوية ، طارت بلا جناح ، وعرفت شؤون الأفلاك البعيدة ، والأجرام النيّرة ، وغيرها من عالم الأرض والسماء ، والماء والهواء .
ويسأل ابن حزم النفس سؤالاً تقريرياً ، مباشرة :
هذا الحظ العظيم من العلم ، لم تقتنعي به ، قبل حلولك فى الجسد ، وتعلقك به .
لقد كان لك عالم واسع ، وسلطة كبيرة ، واطلاع على ما فى العوالم كلها ، حتى تشرفت برؤية الذات السرمدية والأنوار الالهية .
تفكري يا نفس فى وصولك الى الرتب العالية ، وخرقك الحجب ، ورفع الستور دونك وفتح الأبواب المغلقة لك . .
هل درست نفسك بعد هذا ، ما هي ماهيتك ، وجوهرك وصفاتك ؟

قولي يا نفس ، العارفة غيرها ، الجاهلة نفسها : أين وطنك . .

ومن أين تتكلمين . . وكيف تدبّرين شؤون الجسد فى يقظته ونومته ؟
من أين جئت ، وكيف تعلقت بهذا الجسد المظلم ، الجاهل ، وكيف تقيمين فيه ، وترحلين عنه ؟
وعجزت النفس عن الجواب . . واعترفت أن لها مدبّراً علّمها ما أطلعها عليه من الأمور الغامضة ، العويصة ، الصعبة ، البعيدة ، فأدركته ، ولم يعلّمها ما لم يطلعها عليه من الأشياء البسيطة السهلة ، القريبة ، فجهلته .

فابن سينا يشير الى أن وطن الروح هو السماء ، وأنها أرغمت على الهبوط الى عالم الجسد ، فألفته على مضض بعد أن حزنت وبكت ، وبعد مضيّ الوقت المقرر لبقائها ، طارت مرة أخرى الى وطنها فرحة سعيدة مغنّية ،
فلماذا جاءت لقضاء فترة مؤقتة ، ولماذا رجعت ؟

هذا هو سؤال ابن سينا ، لا من النفس ، بل من أهل العلم .

أما ابن حزم فاستعمل أسلوب الحوار مع النفس ، وجعلها تعترف بأنها عرفت عالم الأفلاك النائية ، والنجوم الزاهية ، وغيرها من عالم الأرض والسماء والهواء والماء ، وأنها نالت من الأمور العظيمة المشرّفة ما لم ينله غيرها واطلعت على أسرار العوالم حتى رفع دونها الحجاب فأشرقت برؤية الذات الإلهية .

وبعد هذه المعرفة الواسعة بلا حدود وقيود ، جهلت النفس أمراً بسيطاً ، قريباً منها ، له حدود وسدود ، هذا الأمر هو : من أين أتت ، وأين وطنها بالضبط ، وكيف تعلّقت بشرك البدن ، وكيف أرغمت على البقاء فيه فترة لتدبير أحواله . . وكيف رحلت عنه بعد ذلك ؟
أما مجدها ، وحصولها على الدرجات العليا ، كما يحصي بعضاً منها ابن حزم ، فلا يتطرق لها ابن سينا ، لأن المهم عنده والمعضل هو سر تعلقها بالبدن .
ولكن ابن سينا وابن حزم كليهما يتهمان النفس هنا اتهاماً خطيراً ، فقد نسبا اليها الغباء والنسيان وشرود الذهن ، بعد أن حلّت فى قفص الجسم ، ودخلت سجن البدن ، حتى نسيت موطنها الأصلي كما يقول ابن سينا :

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنازلا بفراقها لم تقنع

وغفلت من أين أتت ، وأين وطنها الأصلي ، كما يقـــول ابن حزم .
والنفس لها الحق أن تصاب بهذه المصائب . . فهي معذورة . . بعد أن غُرّبت . . وسُجنت فى هذا المنفى ، وعُذّبت فى طلل الجسم عذاباً لا حدّ له .

والفكرة الرئيسية عند ابن سينا أن رحلة النفس الى عالم البدن لسرّ غامض ، ذي شقين :
إما لتحقيق حكمة خفية عن الأفهام ،
وإما لاجراء دراسة ، أو بحث فى الجسد لادراك أسرار فى العالم الحسي أو العقلي ، واكتشاف جديد أو الحصول على معلومات جديدة فى ذين العالمين لحسابها الخاص .
وتتفرع عن هذه الفكرة الرئيسية فكرة فرعية ، هي **عدم تناسخ الأرواح** ، فالروح حزنت لفراقها من عالمها السماوي وبكت لمغادرتها بلدها ، وبكت فى مزبلة الجسد ، وإن تعوّدت عليه مرغمة . ثم تحررت فغنّت وطارت بلا رجعة ، بعد أن قطعت كل علاقاتها بالجسد ، وتُركته للحشرات والديدان ، فلا تعود كرة أخرى الى جسد آخر . . فكل الأجساد من نوع واحد ، وكلها مزابل نتنة وجثث قذرة ، ودراسة واحدة تكفيها .

والفكرة الرئيسية ساقها ابن سينا على سبيل سؤال موجّه للعلماء ، فهو لم يفهم سرّ هذه الرحلة الغريبة العجيبة ـ حقيقة أو تواضعاً وهضماً للنفس ، أو للاطلاع على آراء الآخرين ـ ويرجو من العلماء شرحها له ، ففوق كل ذي علم عليم

أما الفكرة الفرعية ، فحدّدها ، وصاغها فى جملة خبرية :
فهي التي قطع الزمان طريقها
حتى لقد غربت بغير المطلع

أي غربت ولا تطلع طلوعاً آخر في عالم الأجساد ، فلا تناسخ ولا حلول .

أما الفكرة الرئيسية عند ابن حزم فهي أن النفس تعلم ما أراد الله لها أن تعلم ، وتجهل ما أراد الله لها أن تجهل ، فعلمها ليس ذاتياً وإنما مكتسب .

أراد الله لها أن تطير وتجول ، وتحصل على سلطات لا حدّ لها ، وامتيازات لا مثيل لها ، كرؤية الله تعالى ، فعرفت من الأسرار ما شاء الله لها أن تعلمه . .

وأراد الله أن يجرّدها من هذه الرتب العالية ، ويعتقلها فى سجن الجسد ، فامتثلت لأنها مخلوق مطيع ، لا يتجاوز حده ، فجهلت ما شاء الله لها أن تجهل .

فهي تعترف بهذا عند ابن حزم ، تعترف بجهلها سبب إقامتها المؤقتة فى هذه الخربة . . وتقرّ بأن لها مدبّراً يعلّمها ما يريد هو لا هي ، فهي مخلوق عاجز ضعيف . ولله الأمر كلـه .

ابن سينا يفكر فلسفياً ويبني آراءه على أسس فلسفيـــة ميتافيزيقية ، ويقتنع بما يصل اليه العقل الفلسفي فى اطار الايمان بالله ، فالله هو الذي أهبط الروح الى الجسد لحكمة خافية ، فالخفاء قضية مسلّم بها ، وأمر مثبت . . وهنا يبحث ابن سينا عن هذه الحكمة عن طريق العقل .

أما ابن حزم فيفكر دينياً ، وأسسه التي يبني عليها آراءه وأحكامه هي مصادر الشريعة ، فهو فقيه مجتهد ، يقتنع بما تتقبله العقدة الاسلامية ، فهو إذ يبحث عن سرّ هبوط الروح الى الجسد إنما يبحث عنه عن طريق الدين لا العقل ، فالاختلاف بين تفكيريهما كبير ، وإن تشابها فى كثير من الأشياء .

ولم يتطرق ابن سينا الى علم النفس نفسها أي ما تعلمه النفس ، هل هو طبيعي ، أي مخلوق معها أم اكتسابي ؟ ويجوز أن يفهم من عبارته : «نسيت» أنه اكتسابي .
أما ابن حزم فصرّح بأنه مكتسب .

أسلوب ابن سينا هو أسلوب الشاعر الحكيم ، صاغ حكمه فى قالب البيان ، فكان فارساً ماهراً فى حلبة الحكمة ، وساحراً أصيلاً فى ميدان البيان واللسان . وهو هنا يخاطب العلماء والحكماء لا المبتدئين والمتعلمين .
أما ابن حزم فأسلوبه أسلوب الفقهاء ، فكأنه يكتب لتلاميذه ليفهموا ، فينال هو الثواب من الله .

أمّا بعد : فهل اقترفت النفس ذنباً ، فحكم الله عليها بالسجن فى الجسد فترة من الزمن ، عقوبة لها ؟
لم يتطرق ابن سينا ولا ابن حزم الى هذا ، وهي مشكلة جديدة .

هوامـش

١) غَمَس يَغمس غُمُوساً : غاب

٢) تخفيف مَلأ

٣) سَرَب يَسرُب سُرُوباً : جرى

٤) جمع ثنية : الطيّة

٥) شَيّاً : شيئاً ـ بقلب الهمزة ياء وإدغام المتجانسين

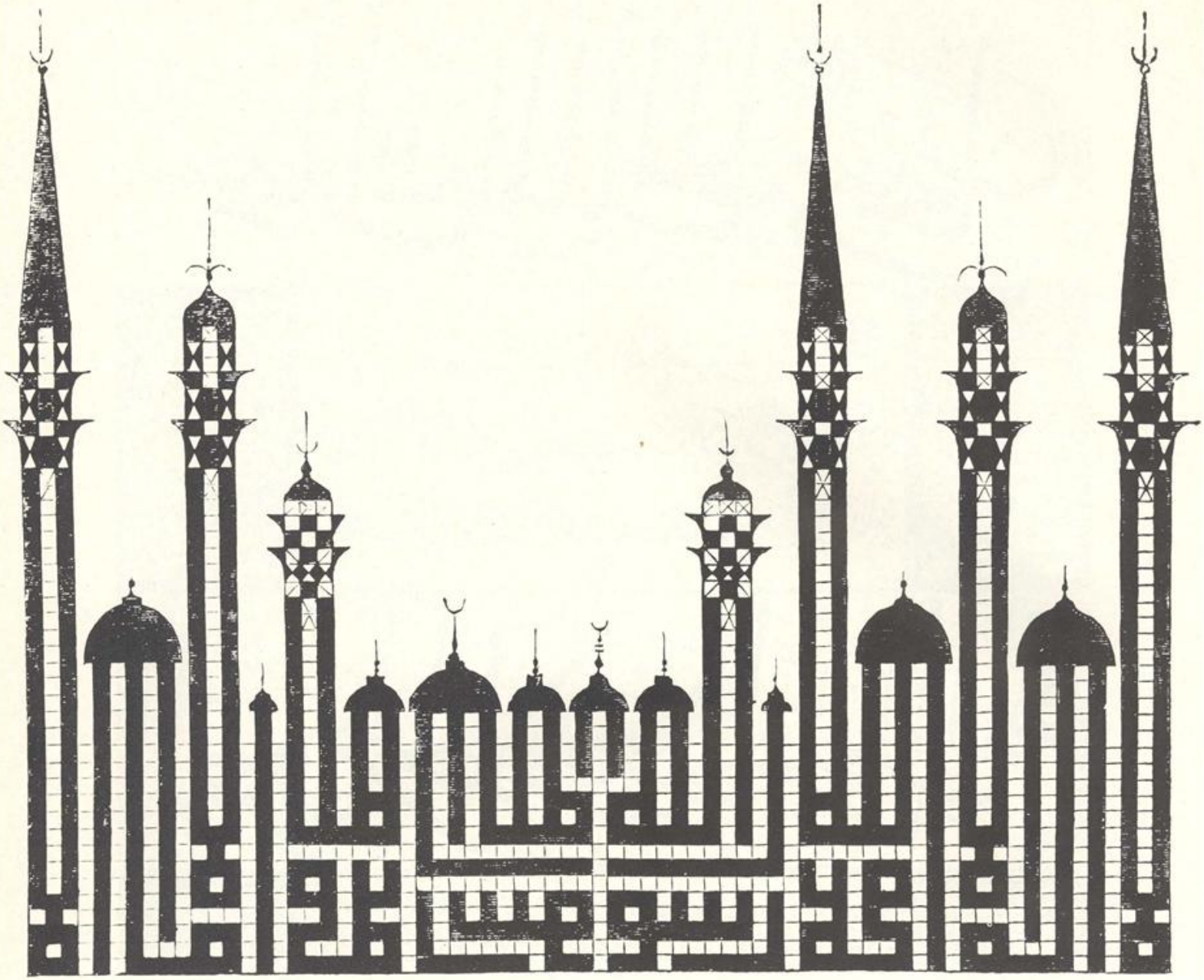

لوحة خطية ، المسجد الحرام في مكة

Ahmed Garahisari

نماذج للخط العربي . تركيا ، القرن السادس عشر ، المكتبة الفنيـــة للمحفوظات البروسية ، برلين .